

المرء على دين خليله فلينظر أحكم من يخال



الاثنين 25 أغسطس 2025 08:00 م

في نسيج العلاقات الإنسانية، تبرز الصداقة كخيوط من ذهب، يربط القلوب ويوثق الأرواح لكن في ميزان الإسلام، هذه الرابطة ليست مجرد خيط اجتماعي، بل هي حبل متين يمتد من الأرض إلى السماء، وقد يكون سبباً في النجاة أو الندامة

فما معنى الصداقة في الإسلام؟

في هذه السطور، سنستكشف كيف بنى الإسلام منظومة متكاملة للصداقة، قائمة على أسس من التقوى، ومحاطة بسياج من الحقوق والواجبات، وجعلها تمتد إلى ما بعد الحياة، لتكون إما حسرة وندامة، أو ظلاً وأماناً يوم القيامة

دعونا نبحر في هذا المفهوم العميق، لنكتشف كيف حوّل الإسلام الصداقة من مجرد رفقة إلى عقد من الوفاء، وميثاق من التقوى، وسبيل للارتقاء في الدارين

دون أدنى شك، الصداقة في الإسلام ليست علاقة عابرة، بل هي مسؤولية مصيرية تلخصها كلمات خالدة للنبي عليه الصلاة والسلام:

“المرء على دين خليله، فلينظر أحكم من يخال”.

هذا الحديث النبوي ليس مجرد نصيحة، بل هو قاعدة تأسيسية ومنهج حياة، يضع بين أيدينا مفتاحاً لفهم كيف نظر الإسلام إلى الصداقة كعقد إيماني وأخلاقي، يحدد مسار الإنسان في الدنيا ويشكل مصيره في الآخرة

من بين كل الروابط التي يصنعها الإنسان في رحلته على هذه الأرض، تبقى الصداقة هي الأكثر تأثيراً في تشكيل روحه ورسم ملامح شخصيته إنها المرأة التي نرى فيها أنفسنا، والصدى الذي يردد أفكارنا

وقد أدرك الإسلام بعمقه وشموليته هذه الحقيقة الجوهرية، فلم يتركها للمصادفة أو الأهواء، بل وضع لها أسساً ومعايير دقيقة

فعندما يعلن الرسول الكريم أن “المرء على دين خليله”، فإنه لا يتحدث عن علاقة اجتماعية فحسب، بل عن اختيار وجودي يمس جوهر العقيدة ويحدد وجهة المصير

الصديق ليس مجرد رفيق

أولى الإسلام اهتماماً كبيراً لمفهوم الصداقة (أو الخلة)، معتبراً إياها من أهم العلاقات التي تشكل شخصية المسلم ومصيره فالصديق ليس مجرد رفيق، بل هو مرآة لصديقه، وله تأثير مباشر على دينه وأخلاقه

يتجلى هذا بوضوح في الحديث النبوي الشريف: “المرء على دين خليله، فلينظر أحكم من يخال”.

هذا الحديث يضع مسؤولية كبرى على عاتق الفرد في اختيار أصدقائه، لأن هذا الاختيار هو في جوهره اختيار للمسار الذي سيسلكه في حياته

كما يضع القرآن الكريم أسساً واضحة للصداقة الحقيقية القائمة على الإيمان والتقوى، محذراً من صداقات المصلحة التي تنقلب إلى عداوة يوم القيامة: “الَّذِينَ يُولُوا بِأَفْئِدَتِهِمْ إِلَىٰ مَا هُم بِهِ مُخْلِصُونَ عَلَىٰ آلِهِمْ لَا يَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن يُعْطِ اللَّهُ حَقَّ ظَنِّهِ لَئِن كَانُوا مِنكُم مِّن شَائِرَةٍ لَّيَكْفُرُنَّ بِهِمُ اللَّهُ وَيَتَّخِذُ مِنكُمْ هَدْيًا بَاطِلًا لَّئِن كَانُوا مِنكُم مِّن شَائِرَةٍ” (سورة الزخرف، الآية 67).

الصداقة في الإسلام هي علاقة تعاون على الخير، وتناصح في الله، وتكافل في الشدائد إنها رباط يتجاوز حدود الدنيا ليمتد إلى الآخرة

الصداقة في الإسلام وأسس الاختيار

لم يتعامل الإسلام مع الصداقة كعلاقة اجتماعية عابرة، بل رفعها إلى منزلة رفيعة وجعلها معياراً دقيقاً ومؤثراً في حياة الفرد الدينية والدنيوية، بل وحتى في مصيره الأخروي

إنها عقد أخلاقي متكامل، ورابطة إيمانية تُبنى على أسس متينة من الحقوق والواجبات، وتتجاوز المنفعة المادية لتصل إلى غاية أسمى هي التعاون على تحقيق مرضاة الله

يضع الإسلام قواعد واضحة لاختيار الصديق، لأن هذا الاختيار لا يؤثر على سلوك الفرد فحسب، بل على قلبه وعقيدته الأساس الأول والأهم هو الصلاح والتقوى

فالصديق الصالح هو الذي يعين على الطاعة ويذكر بالله، بينما الصديق السيئ (صديق السوء) يجر إلى المعصية والغفلة

يتجلى هذا المبدأ في الحديث النبوي الشريف الذي يُعتبر دستوراً في هذا الباب: “مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك (يعطيك)، وإما أن يتبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة” (متفق عليه).

هذا التشبيه البليغ يوضح أن أثر الصديق حتمي، فإذا أن تنتفع منه خيراً كعطر المسك، أو أن يلحق بك ضرراً كشير النار ورائحة الدخان ذلك، حذر الإسلام من مصادقة أصناف معينة من الناس قد يكون ضررهم أكبر من نفعهم، كالكذاب، والأحمق، والفسق، والبخيل، وقاطع الرحم، لأن طباعهم السيئة مُعدية ويمكن أن تنتقل إلى من يصاحبهم

واجبات متبادلة لبناء الثقة

الصدقة في الإسلام ليست علاقة أخذ بلا عطاء، بل هي منظومة من الحقوق المتبادلة التي تضمن استمراريتها وقوتها وقد لخص الإمام الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" بعضاً من هذه الحقوق والآداب، والتي يمكن إجمالها في: الحق المالي: أن يسد حاجة صديقه المالية ويعينه في أزماته، وأن يؤثره على نفسه عند الحاجة، معتبراً ماله ومال صديقه شيئاً واحداً الإعانة بالنفس: الوقوف معه في الشدائد، والمبادرة لمساعدته قبل أن يطلب، والدفاع عنه في غيابه فمن كمال الصداقة أن تكون درعاً لصديقك يحمي عرضه وسمعته حفظ اللسان: أن تحفظ أسرارها ولا تفضيها، وأن تستر عيوبه ولا تظهرها، وأن لا تذكره إلا بخير اللسان هو ميزان الصداقة، فإذا ما بينها بالكلمة الطيبة أو يهدمها بالغبية والنميمة النصح والإرشاد: أن تكون مرآة صادقة له، تنصحه برفق ولين إذا أخطأ، وتدله على الخير، وتأمره بالمعروف وتنهيه عن المنكر وهذا من أعظم حقوق الصداقة، لأنه دليل على حب الخير الحقيقي له الدعاء له بظهر الغيب: أن تتذكره في دعائك، فدعوة المسلم لأخيه في ظهر الغيب مستجابة، وهي أصدق دليل على محبة خالصة لا ترجو مقابلاً دنيوياً العفو والصفح: أن تقبل عذره إذا اعتذر، وتتجاوز عن زلاته وهفواته، فالبشر خطأؤون، والصدقة الحقيقية هي التي تتسع للضعف الإنساني وتتعامل معه بالرحمة والمغفرة

الصدقة في الإسلام كعلاقة مصيرية

الجانب الأكثر تميزاً في النظرة الإسلامية للصدقة هو ربطها بالمصير الأخروي فالصدقات لا تنتهي بانتهاء الحياة الدنيا، بل تمتد آثارها إلى يوم القيامة، حيث تكون إما سبباً للنجاة أو سبباً للندامة

سبب للنجاة والارتقاء

الصدقة في الإسلام التي تكون سبباً للنجاة هي الصدقة القائمة على محبة الله والتعاون على طاعته هي من أسمى القربات وقد بشر النبي بأن المتحابين في الله سيكونون في ظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله، فقال: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... (وذكر منهم) ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه." هذه الصداقة تصبح سبباً لرفعة الدرجات في الجنة

سبب للندامة والحسرة

على النقيض تماماً، فإن الصدقات القائمة على المصالح الدنيوية، أو المعصية، أو الصد عن سبيل الله، ستقلب إلى عداوة وخصومة يوم القيامة يصور القرآن الكريم هذا المشهد المؤلم بوضوح شديد: "وَيَوْمَ يَعْصُ الطَّالِمُ عَنِّي يَدِيهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً" (سورة الفرقان، الآيات 27-29). هذه الآيات تصور حسرة من اتبع صديق السوء، وكيف يتمنى لو أنه لم يصادقه، معترفاً بأنه كان سبباً في ضلاله ولهذا، فإن الآية الكريمة: "الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ" (سورة الزخرف، الآية 67) تضع الخط الفاصل والحاسم فكل الصدقات ستتهار وتتحوّل إلى عداوات، إلا تلك التي قامت على أساس التقوى ومخافة الله، فهي الوحيدة التي ستبقى وتستمر، وتكون سبباً لسعادة أصحابها في الدارين بهذا العمق، لم تعد الصداقة في الإسلام مجرد علاقة إنسانية، بل أصبحت جزءاً لا يتجزأ من عقيدة المسلم وسلوكه، ومسؤولية كبرى يترتب عليها مصيره في الدنيا والآخرة الحديث عن الصداقة في الإسلام يقودنا إلى القول أن أعظم القرارات التي يتخذها الإنسان بعد قرار الإيمان، هو قرار اختيار الصديق ليس مجرد اختيار لرفيق درب، بل هو اختيار لدين ومنهج وطريق لقد وضع الإسلام هذا القرار تحت مجهر التدقيق والوعي، محذراً من أن الصديق قد يكون سبباً في رفعك أو سقوطك، ونجاتك أو هلاكك وبكلمات موجزة وحاسمة، رسم النبي خارطة الطريق لهذه العلاقة المصيرية بقوله: "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل".